البيئة والمجتمع العباسي/ دراسة أيكولوجية تاريخية

عبد الكريم عز الدين صادق

جامعة بغداد - كلية التربية للبنات - قسم التاريخ

الخلاصة

تتناول هذه الدراسة العلاقة الوطيدة بين البيئة والمجتمع العباسي في العصور الوسطى، وبيان دور مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية وأثرها الكبير في زيادة الوعي العام بأهمية الاهتمام بمحيطنا الخارجي.

وتبين الدراسة بأن هنالك ثنائية التأثير والتأثير في المحاور الثلاثة التي تشمل المؤسسات الرسمية والرقابية، وثانيهما المجتمع العباسي وثالثهما البيئة ووسائلها المتاحة في الحفاظ على رقيها وسموها.

The Ecologia and Abbasid's Community/ Historical-Ecological Study

Abdul Kareem Azldeen Sadik

Baghdad University – College of Education for Women - History Department

Abstract

The study includes the relationship between the ecologia and Abbaside's community in the middle ages, and the role of Baghdad capital city to increasing the sensibility of the people to the outwardly peripheral.

The study explains the efforts between the people and Abbaside's government to cure the knowledge of ecologia, to prevent the separation of diseases and pollutions of the community.

Keywords: Ecologia, Abbasid's, diseases, pollutions.

المقدمة

وعد العباسيون الاهتمام البيئي هو جزء من الازدهار والتطور الحضاري والتعبير عن الذوق والسلوك السليم في التعامل والتفاعل مع المحيط الخارجي، لأن البيئة هي انعكاس الشعور المجتمعي بالمسؤولية الملقاة عليه، وتوظيف الأدوات الخاصة والجهد المخلص والحقيقي الذي بذله المجتمع العباسي للحفاظ على البيئة السليمة من أجل الوقاية والتصدي لمظاهر التلوث والمرض والأوبئة.

وقد شاركت مؤسسة الخلافة العباسية بثقلها الكبير من أجل ترصين المعايير السليمة لمقومات البيئة، لأن مؤسسة الخلافة هي جزء من ذلك المجتمع العباسي ولابد لها أن تؤثر وتتأثر على جميع الصعد والاتجاهات. وكان للمجتمع العباسي دوره الإيجابي والمتميز والذي عكس لنا الصورة الجميلة والزاهية عن الرقي الحضاري والإنساني في تلك الفترات التاريخية عندما كانت الكثير من شعوب العالم تقبع في الجهل والظلام والتخلف، وحالة من الرثاء للتراجع البيئي وانتشار المجاعة والأوبئة والتلوث.

أن التقدم الحضاري له أبعاده المختلفة على جميع مناحي الحياة المختلفة وبذلك أصبح المجتمع السليم بحاجة أن تتوفر فيه بيئة سليمة وصحيحة، وهذا يحقق الغايات النبيلة للمجتمع المثالي المطلوب.

اهتمام علماء المسلمين في البيئة

لقد حثنا الله تعالى في كتابه المبين، على الاهتمام بالجانب البيئي في حياتنا اليومية، في قوله تعالى: (**كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**)[1]، والآية الكريمة تعبر بوضوح وصراحة عن علاقة الإنسان مع الموجودات التي تحيط به في هذه الأرض.

وعلم البيئة، من العلوم المهمة في حياة الناس والمجتمعات الإنسانية، والذي يطلق عليه بالمصطلح اليوناني (أيكولوجيا Ecologia)[2]، ونعني بهذا المصطلح هو ذلك التفاعل بين الكائنات الحية ومحيطها في عالم المسكن أو علم شروط الحياة.

وهذا يظهر لنا أهمية الأيكولوجيا ومصطلحه الدقيق المعبر، وقد يكون ترجمته إلى العربية لا يعطي كل أبعادها المطلوبة، في علاقة الإنسان والكائنات الحية مع محيطها الخارجي وكيفية توظيف العوامل الخارجية والداخلية في سبيل تحقيق الحياة السعيدة المثالية.

أن المتتبع للتراث العربي الإسلامي، سيجد أن الاهتمام بالبيئة يعود في الأساس إلى جهود العلماء المسلمين ونظرياتهم المعروفة من خلال المؤلفات والكتب التي كتبت في هذا الجانب.

أن هذا المصطلح لم يكن غائباً عن علمائنا الأوائل في مدلول مصطلح البيئة لغوياً واصطلاحاً، ويبدو بأن اللفظ كان متداولاً، فذكره ابن منظور في كتابه لسان العرب، قائلاً في ذلك: (بأن البيئة والباءة والمباءة، المنزل وقيل منزل القوم حيث يتبؤون من قبل واد أو سند أو جبل، والمباءة منزل القوم في كل موضع)[3].

ويتبين لنا من خلال هذا التفسير اللغوي بأن البيئة عند العرب تعني ما يحيط بالإنسان وما حوله من العمران والنفوس والماء والهواء وكذلك الحيوان والنبات.

ووردت في كتب الأدب والتراث العربي، دلالات تشير إلى هذه المكونات البيئية، فعند الإشارة عن الهواء والذي هو المصدر الأساس للحياة في العيش وكذلك في سرعة إصابته بالتلوث، فبين العرب الأوائل بأنه (جرم بسيط، طباعه أن يكون حاراً رطباً متحركاً إلى المكان) [4]. وهنالك بعض العلماء المسلمين من يرى بأن الهواء ينقسم إلى قسمين رحمة وعذاب، وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام وكل قسم اسم، فأسماء أقسام الرحمة: المبشرات والنشر، والمرسلات والرخاء، وأسماء أقسام قسم العذاب: العاصف والقاصف وهما في البحر، والعقيم والصرصر وهما في البر[5].

وقد أشار بعض العلماء عن طريقة التخلص من الهواء الفاسد من الآبار، وبين ذلك ابن وحشية في كتابه الفلاحة قائلاً: (على الذي يهبط إلى البئر التي يتصاعد منها بخار رديء أن يشعل شمعة قبل أن يهبط ويدليها في البئر فأن انطفأت فعليه أن يعمد إلى سراج فيشعله ويدليه، وليكن بدون زيت بل بشحم، فأن أنطفأ فالبئر رديء ويجب الإقفال والإهمال [6]، ويسترسل ابن وحشية في طرق متعددة لإخراج الهواء الفاسد.

وسنلاحظ في صفحات هذا البحث الاهتمام الكبير والمتزايد للمجتمع العباسي في مسألة المياه والحفاظ على نقاوتها وعدم تلوثها، لأن (الماء خلقة كل حيوان لأنه كأنما خلقه من الماء لفرط احتياجه إليه وقلة صبره عنه)[7].

دور المؤسسات الرسمية للخلافة

هنالك اهتمام في الدولة العباسية بسلامة وصحة البيئة، وكان المجتمع العباسي له التأثير الكبير على مؤسسة الخلافة العباسية لاتخاذ القرارات التنفيذية الواجب تنفيذها لغرض بسط المعايير السليمة لبيئة مثالية وقياسية من أجل الوصول إلى مجتمع سعيد تتوفر فيه مقومات الحياة الكريمة.

ولذلك، فأننا نلاحظ التدخل المباشر من قبل المؤسسات الرسمية للخلافة لغرض إنجاز هذه المهمة الإنسانية، مما أدى بمؤسسة القضاء بالحكم بالتعزير على كل من أساء إلى البيئة ومقوماتها الصحيحة، من خلال شكاوي الناس، أو من رأى الناس من يؤذيهم في سلامة الطرق العامة، أو من يعمل على تلويث مياههم.

بل وصل الأمر عند بناء المدن الممصرة في العالم الإسلامي، كان يؤخذ في نظر الاعتبار الجوانب البيئية مسبقاً لبناء المدينة قبل الشروع في بنائها، فعلى سبيل المثال لا الحصر فأن الخليفة أبي جعفر المنصور، عندما بنى مدينته (المدينة المدورة)، أختار الموقع المناسب من حيث سلامة الموقع من الأوبئة والأمراض، وبعد إنجازه لبناء هذه المدينة أضاف إليها أنواع من الشتلات الزراعية وفتح لها نهراً يخترق وسط المدينة، وذلك من أجل مدينة زاهية تتوفر فيها المقومات البيئية السليمة.

وكان الخليفة المنصور قد قام بتوزيع عدد من قطع اللحوم في المنطقة التي يراد منها إنشاء وبناء مدينته وحاضرة خلافته، وبإشراف بعض الأطباء لبيان مدى تأثر هذه اللحوم في بيئة المنطقة، حتى حصل له الاطمئنان التام في ذلك[8].

وليس هذا فحسب، فلقد نزل الخليفة المنصور بدير وأحضر البطريق وصاحب بغداد وصاحب المخرّم وصاحب الدير المعروف ببستان القس، فسألهم عن مواضعهم، وكيف هو في الحر والبرد والأمطار والوحول والبق والهوام؟ فأخبره كل واحد بما عنده من العلم فوجه رجالاً من قبله، وأمر كل واحد منهم أن يبيت في قرية منها، وأتاه بخبرها[9].

والموضوع نفسه، فقد تم اختيار السلامة البيئية في بناء مدينة سامراء، حيث وصفت بأن (نسيمها معطر، وترابها مسك أذفر، وشرابها مرئ)[10]، وهذا يدل لنا بأن هنالك سلامة بيئية في منطقة سامراء آنذاك ليشمل سلامة الهواء والتربة والماء، بحيث أصبحت تلك المقومات من القواعد الصحيحة لبناء هذه المدينة لتوافر المقومات الضرورية لبناء المدن السليمة.

أن التوسع العمراني لمدينة سامراء على وجه الخصوص في عهد الخليفة المتوكل بالله العباسي، مما دفعه إلى جعل عرض الشارع الأعظم لمدينته المتوكلية مائتي ذراع، وقدر أن يحفر في جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير[11].

وهذا يبين لنا ذلك الاهتمام الكبير في توفير وتحقيق البيئة المطلوبة للمدن.

أن انتقاء بناء المدن وفق المدلولات البيئية لم يذهب فقط في هذا الميدان لوحده، بل أن اختيار المستشفيات (البيمارستانات)، قد أصاب الشيء نفسه في اختيار الموقع المناسب وبما ينسجم مع البيئة الصحيحة، فعندما تم بناء البيمارستان العضدي في بغداد (368هـ/978م)، والبحث عن الموقع المناسب، فأن ابن أبي أصيبعة يبين لنا بأنه (أمر بعض

الغلمان أن يعلق كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم، اعتبر التي لم يتغير فيها اللحم بسرعة فأشارت الخلافة بأن يبنى في تلك الناحية وهو الموضع الذي بنى فيه البيمارستان) [12].

وأن موضوع التكيف البيئي مع المدينة قد شمل مدن إسلامية متعددة، فمدينة (قرطاجنة) الواقعة في المغرب العربي فقد (جلب اليها الماء من جبال منحازة بعضها من بعض وقد وصل بين تلك الجبال بعقود معقودة وعُمد مبنية كالمنائر العالية وجعل مجرى الماء فوق ذلك المعقود والأزج المحكم المنحوت، وأهل تلك البلاد سمونها الحنايا، ومن نظر إلى هذه المدينة عرف عظم شأن بانيها) [13]، وهذا يدل على اهتمام مؤسسة الخلافة في الجوانب الفنية والمعمارية ذات التأثير على بيئة المدينة.

ومن المعروف بأن المساحات الخضراء والمياه لهما دورهما في التوظيف الصحيح للبيئة الصحية الجيدة، ولذلك اهتم المجتمع العباسي ومؤسساته الرسمية بزراعة المدن بالشتلات الزراعية لغرض الحصول على الهواء النقي والمنعش الناتج من وجود المساحات الخضراء، فضلاً عن التمتع بجمالية المكان مما يكسب شعوراً نفسياً بالهدوء والطمأنينة، وهنالك أمثلة تاريخية حول هذا المطلب ومنها بأن الخليفة القاهر بالله العباسي قد عمل بستاناً كبيراً في بغداد وكانت متعة الخليفة وسروره به، وقد غرس فيه أعداد كبيرة من النارنج، وحمل إليه مما حمل من أرض الهند، وقد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره، وكان في هذا البستان الكبير الأنواع المختلفة من الطيور[14].

كما أن ظاهرة التشجير وزيادة المساحات الخضراء في بغداد العباسية، كانت ملفتة للنظر، حيث أن التنوخي صاحب كتاب نشوار المحاضرة قد حدثنا بأنه شاهد ببغداد ورداً أصفر، واستغرب لذلك لأنه عدّ ورق ورده فكانت ألف ورقة، وأنه رأى ورداً أسود حالك اللون له رائحة زكية[15].

والأمر نفسه في توسيع المناطق الخضراء في مصر، حتى فاق ما فيها من البساتين والتي تزرع فيها الرياحين وأصناف الشجر ونقل إليها النخل اللطيف، وحمل إليها كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورود وزرعت فيها الزعفران [16]، وكانت زيادة المناطق الخضراء في بلاد الشام، هي الأخرى تثير إعجاب الناظرين حتى أن الشاعرين الصنوبري وكشاجم وهما من شعراء الطبيعة، قد نظما قصائدهما الشعرية تغنياً بجمال البساتين والأشجار والزهور في الشام[17].

وكان هنالك اهتمام كبير في مسألة المياه ومن جميع جوانب هذا الموضوع، ومنها في المقدمة توفير المياه النقية الصالحة للشرب للناس، ففي مدينة مكة المكرمة، كانت عيون مياهها غير مستساغة للشرب، ولذلك عقدت الخلافة العباسية على إنشاء القناة المعقودة تحت الأرض والتي أمرت بإنشائها السيد زبيدة زوجة الخليفة الرشيد، ولكن هذه القناة ما لبثت بين الحين والآخر من أن تتعطل، الأمر الذي دفع الدولة عبر تاريخها من إدامة وتصليح هذه القناة، ومنها ما يتطرق إليه الطبري في تاريخه بأن أم الخليفة المتوكل قد أمرت بإصلاح القناة وتطويرها والإنفاق عليها وكان ذلك في عام (245هـ) [18].

بل أن هذا الاهتمام قد وصل إلى توفير المياه الصالحة للشرب في الجوامع والمساجد، ومنها أن (جامع القصر) الذي بناه الخليفة المكتفي بالله في بداية حكمه سنة (289هـ) والذي عمل فيه سقاية للماء، وقد تم تطوير هذه القناة لاحقاً، وذلك في سنة (475هـ) حيث تم إنشاء سقاية في دار الخليفة في قنى تحت الأرض، وجعل فيها فوارات فانتفع الناس بذلك منفعة عظيمة[19]. وهنالك إجراءات رسمية وفعالة تقوم بها المؤسسة الرسمية لمعالجة الأزمات المائية، باعتبار أن المياه من المقومات الأساسية للحياة، وهذا ما حصل في العصور العباسية المتأخرة عندما حصلت أزمة في الماء الصالح للشرب في مدينة مكة تمت معالجتها من خلال استكشاف بئراً عظيماً في منطقة الحناطين، وخرجت منها المياه العذبة وسميت (الجراحية)، وبذلك كثر واتسع الماء بمكة وانتهت الأزمة[20].

كما أن مؤسسة الخلافة كانت مهتمة بالجانب الآخر من مسألة المياه، والمتمثلة في التخلص من الوحول والمياه الثقيلة، وهنالك أمثلة تاريخية لذلك ومنها ما حصل في فترة خلافة المقتدي بالله العباسي، ففي سنة (479هـ/1086م)، كثرت الأمطار في بغداد وأدت إلى رداءة الطرق، ويعلق على ذلك المؤرخ ابن الجوزي بالقول: (في رمضان كثرت الوحول في الطرقات، فأمر أمير المؤمنين (المقتدي) بتنظيفها وأقيم عدد من الفعلة ومئة من البهائم لنقلها)[21]، ويبدو بأن هذا العدد من العمال المنظفين واستخدام الحيوانات في نقل الأوساخ والطين قد استمر لفترة من الوقت لتنفيذ الأعمال المناطة بهم. وأن هذه الحادثة قد تزامنت مع أمر الخليفة المقتدي بمنع تصريف المياه القذرة للحمامات إلى نهر دجلة، وألزم أصحابها بحفر الآبار لهم لهذا الغرض[22]، وعليه يمكننا أن نستنتج أن تصريف المياه القذرة للحمامات كانت من المشاكل البيئية التي عانى منها الناس وعلى وجه الخصوص البيوت المجاورة لهذه الحمامات.

ووقع الأمر نفسه في خلافة المستضيء بالله العباسي، ففي سنة (573هـ/ 1171م) وفي ليلة (الأحد السادس عشر رجب جاء مطر عظيم ودام ثلاثة أيام بلياليهن، وكان فيه رعود هائلة وبروق عظيمة، وامتلأت الطرقات بالماء وبقي الوحل أسبوعاً وجمع أهل كل درب بينهم أثنى عشر ديناراً لمن ينتقل الماء في المزادات إلى دجلة، وأخرج الخليفة مالاً ينفق في تنحية الوحل من الطرق) [23]، وأن هذه الرؤية التاريخية تظهر لنا بوضوح التعاون المثمر والتام بين المجتمع العباسي ومؤسسة الخلافة للحفاظ على السلامة البيئية والنظافة وكذلك إدراك الوعي البيئي المتقدم عند جميع الأطراف.

وتعد فيضانات الأنهر واحدة من المظاهر البيئية الخطرة، لما تسببه تلك الفيضانات من انتشار الأوبئة والحشرات وأتلاف المحاصيل الغذائية، فضلاً عن الأضرار المادية الكبيرة في أرواح الناس وممتلكاتهم، ولذلك فأننا نرى أن المرحلة الأولى للعهود العباسية ولغاية سنة (350هـ/960م)، قد تميزت بقلة تعرض مدينة بغداد دار السلام إلى مخاطر الفيضانات

ولاسيما القسم الشرقي منها وهو الأكثر تعرضاً لحوادث الفيضانات ويعزى ذلك إلى اهتمام مؤسسة الخلافة في إقامة مشاريع الري على نهر دجلة وفروعه وكذلك (تطور المعرفة الهندسية بوسائل الوقاية من الفيضان) [24].

ويبدو أن البثوق والشقوق في أسوار بغداد أو سدودها من أحدى الأسباب المهمة لفيضانات بغداد، ولذلك تضاعفت الجهود الاجتماعية والرسمية لصيانة ومراقبة البثوق والشقوق والمسنات وإصلاحها، وهنالك إجراءات حكيمة لحث الناس للتعاون في هذه القضية، فقد أمرت الدولة العباسية في سنة (403هـ/1012م)، (برفع ضريبة الخراج عن الناس مقابل مساهمتهم في إصلاح السدود والأنهار، وبالفعل فقد تعاون المجتمع العباسي في إصلاح بثق النهروان فعمل فيه حتى تم أحكامه وحملوا القصب فطرحوه، وحملوا التراب على رؤوسهم، والخلافة والناس ساهرون طوال الليل حتى ثم إصلاح البثق) [25].

وأن الرقابة المؤسساتية شملت كذلك المياه المستخدمة لغرض استخدامات الاستحمام، وكذلك غسل الأواني المخصصة للطعام.

فكانت المياه المستخدمة في الاستحمام توظف إلى الحمامات العامة، لأنها كانت أكثر بكثير من الحمامات الخاصة، وتفتح أبوابها من الصباح الباكر وتستمر حتى وقت الغروب، وكانت الدولة تراقب هذه الحمامات، وتراقب توافر الشروط الصحية فيها، ومنعت من غسل الأواني في حوض المستحم، كما منعت من تصريف مياه الحمامات إلى نهر دجلة تحسباً لحدوث التلوث المائي، ولذلك أرغمت أصحاب الحمامات على حفر آبار لصرف المياه[26].

ولغرض تنفيذ تلك المهمة، فكان على صاحب الحمام أن يكون عنده أنبوبان أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد، ولكي نضمن السلامة الصحية للمستحمين وعدم إصابتهم بعدوى الأمراض المعدية، فقد أمرت الدولة بأن يعطى ثلاثاً من الفوط لكل من يدخل الحمام، الأولى يئتزر بها عند دخوله والثانية يئتزر بها عند خروجه والثالثة ينشف بها الماء عن جسده[27]، وبعد ذلك يتم غسل جميع هذه الفوط والتأكد من سلامتها.

بل وذهب الأمر بأن ينشأ البعض حمامات داخل المدارس لغرض إدامة النظافة للطلبة، فضلاً عن توفر شروط الوقاية من الأمراض الوبائية، وعليه فقد تم (بناء حمام للطلاب في المدرسة المستنصرية، وكذلك حمام آخر للفقهاء داخل هذه المدرسة) [28].

أما طريقة التعامل البيئي للوقاية من الأمراض الوبائية المعدية، فهنالك جهود كبيرة بذلها الجميع في مؤسسات الدولة والنخب الاجتماعية من خلال عدة إجراءات ومنها، إنشاء المستشفيات السيارة المتنقلة لتقديم الخدمات الطبية والعلاجية للمناطق الريفية والنائية، ومنها ما قام به الوزير علي بن عيسى، بأن أمر الطبيب (سنان بن ثابت) (بتقديم الخدمات الطبية والعلاجية لأهل القرى والأرياف وكذلك للسجناء) [29]، وذلك في عام (335هـ/947م).

وفي هذا الصدد، ففي عهد الخليفة المقتدي في سنة (478هـ/1089م)، انتشرت الأوبئة في بغداد فأمر الخليفة بتوزيع الأدوية والأموال على الفقراء وطلب من أطباء البيمارستان من ضرورة المراعاة الإنسانية وتقديم الخدمات اللازمة والمعاملة الطيبة إلى المرضى[30].

كما أن هذه الأوبئة قد تكررت في سنوات لاحقة، وتم معالجتها وتكثيف الجهود المضنية في ذلك خلال الأعوام (479، 488، 493، 560) هجرية[31].

رقابة المحتسب للبيئة

ظهرت وظيفة المحتسب في الدولة العربية الإسلامية، باعتباره أحد الأجهزة الرقابية المهمة في المجتمع وتحت سلطة القانون والقضاء، وإذا ما قرأنا بعض كتب الحسبة مثل كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيزري، ولنفس عنوان الكتاب لابن بسام، وكتاب معالم القربة في آداب الحسبة للقرشي، وكتاب (نصاب الاحتساب) للسنامي، حتى نجد أن مؤسسة الحسبة تكاد أن لا نجد لها نظير في الحضارات الأخرى من حيث التنظيم والتطبيق وعلى وجه الخصوص في الأوامر والأحكام المتعلقة بالبيئة والمحافظة عليها من التلوث.

وهذه الوظيفة سميت من أجل الاحتساب وحسن التدبير في الأمر، وقد ظهرت في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام (125هـ) وأصبحت ذات شأن مهم في العصور العباسية من خلال الضرورة لهذا المنصب الذي يتماشى مع التغييرات التي طرأت على الحياة العامة للمجتمع العباسي والذي يتطلب إجراءات رقابية وقضائية للحد من تجاوزات العابثين بالبيئة وبسلامة الناس.

وهنالك الأمثلة التاريخية التي تبين لنا الدور الرقابي للمحتسب، ففي مجال المياه الصالحة للشرب، ففي مصر، كان المحتسب يختار السقائين عريفاً عليهم، وكان (هذا العريف بدوره يلزم السقائين عندما يملأون قربهم من ماء النيل، أن يبتعدوا عن الشطوط لأن الأقذار تتركز عليها) [32].

أما بخصوص المياه القذرة والفضلات، فإذا خرب البالوع الذي أحدثه عدة أشخاص تحت الطريق العام واندفعت منه الأقذار إلى الطريق، وتأذى المارة، فلقد ألزم المحتسب بحق هؤلاء المارة أن يكلفوا أصحاب البالوع بإصلاحه) [33].

وإذا انشق بالوع المياه لدار أحد الناس، وسال في دار الجار، فيجب تعميد وإصلاح البالوع بناءً على دعوى الجار لكونه ضرراً فاحشاً عند المحتسب[34].

أما في ميدان العلاقة بين البيئة والمياه والزراعية، فإذا زرع أحد رزاً في مزرعته، وتجاوزت المياه إلى مزرعة الجار فأفسدتها يمنع من قبل المحتسب، وكذلك لو اتخذ أحد داره الواقعة في طريق غير نافذ زريبة للأغنام، وتأذى الجيران من رائحة الروث[35].

وأن بعض المهن والأعمال اليدوية في الأسواق، قد تسبب ضرراً بيئياً على سلامة المجتمع، ولذلك نظمت الدولة قوانينها ومن خلال المحتسب باعتباره الجهة التنفيذية لذلك من خلال تنظيم تلك المهن والدكاكين، ووفق قوانين وأوامر بحيث تضمن السلامة البيئية الصحيحة، ومن هذه الأوامر بأن يطلب من الجزارين أن يتمنعوا من ذبح أي جمل مقرح الجسم إلى أن يبرأ جميع ما فيه من القروح ويمتنعوا أن ينفخوا شاة بعد السلخ فأن نكهة الإنسان تغير اللحم وتزفره[36].

وبالنسبة لبائعي رؤوس المواشي فعليهم بنظافة سمط الرؤوس والأكارع بالماء الشديد الحرارة، وجودة تنقيته من الشعر والصوف منها، ثم تغسل بعد ذلك بالماء البارد، غير الذي سمطت فيه، ويجب على الرواس أن يضم أصبعه في الخياشيم، ويغسل داخلها، بعد أن يدق مقدمتها، وينزل ما فيه من القذارة والوسخ والدود المتولد، أن كان هناك منه شيء[37].

وللحديث صلة عن اللحوم، فلقد أمر المحتسب قلائي السمك بغسل أطباقهم التي يحملون فيها السمك، وينشرون فوقها الملح المسحوق كل ليلة بعد الغسيل، وكذلك يفعلون بموازينهم الخوص، لأنهم إذا غفلوا عن غسلها قام نتنها وكثر وسخها، فإذا وضع فيه السمك الطري تغير ريحه وفسد طعمه، ويبالغون في غسل السمك، بعد شقه وتنظيفه، وتنقيته من جلده وفلوسه، ثم ينشرون عليه الملح والدقيق[38]، ويتضح من هذا تلك الإجراءات التنظيمية الدقيقة الواجب اتخاذها حفاظاً على الصحة العامة وبالتالي الحفاظ على البيئة السليمة.

أما طريقة إعداد الطعام في الأسواق، فأن المحتسب يطلب من يعمل في صنع الهرائس أن تكون هنالك مواضع فوق دكاكينهم فيها الحصر والموائد، وخدام وطشوت وأباريق وأشنان ويطالب من الهراس أن يعتني بنظافة قدروهم وجميع آلاتهم بالغسل بكرة كل يوم بالأشنان (الصابون) والماء الحار[39].

وكذلك تم منع المحتسب من فتح مطبخ في سوق البزازين لأن دخان المطبخ يصيب الأقمشة [40]، حيث أن التأثيرات البيئية السلبية ستؤثر على الإنسان وعلى حاجاته الاستهلاكية والغذائية.

كما منع بائعي السمن أن تكون بضائعهم مصونة لئلا يصل إليها شيء من الذباب وهوام الأرض، أو يقع على شيء من التراب والغبار ونحو ذلك، وإذا وضعوها في قفاف الخوص، فلا بأس بها إذا كانت مغطاة بالميازر، وتكون المذبة في يده، يذب عن البضاعة بها الذباب، ويأمرهم المحتسب بنظافة أثوابهم[41].

والأمر نفسه ينطبق على الحلوانيين، فقد أمرهم المحتسب بتغطية أوانيهم، وحفظها من الذباب بعد غسلها بالماء الحار والأشنان[42].

وفي ميدان صناعة الخبز، فأن المحتسب قد أمر الخبازين بمسح التنور إذا أحموه وشرعوا في الخبز، وبنظافة أوعية الماء وتغطيتها ونظافة المعاجين وما يغطي به الخبز، وما يفرش تحته، ولا يعجن عجان بقدميه ولا بركبته ولا بمرافقه، لئلا تنحدر أعراق أبدانهم في العجين، ويكون العجان متلثماً لئلا يبدر من بصاقه أو مخاطه شيء في العجين إذا تكلم أو عطس، ويشد جبينه بعصابة بيضاء ليمتنع عرقه أن يقطر، ويحلق شعر ذراعيه، وإذا عجن في النهار فليكن عنده من يبعد عنه الذباب[43]، وكل ذلك للحفاظ على السلامة البيئية المتعلقة بالصناعات الغذائية.

والأمر نفسه لبائعي الخضروات والبقول، فيطلب المحتسب منهم أن يبيعوا منتجاتهم مغسولة، ومنقية من الحشيش، وإذا بات عندهم شيء في دكاكينهم من الخضروات فلا يخلطوه من طري يومه[44].

أما فيما يتعلق في موضوع الفضلات القذرة والأزبال والأوساخ، فلقد اتخذ المحتسب أمراً ينص فيه عدم جواز رمي القمامة في جدار الجار، وإذا تضرر حائط الجار، فلصاحب الحائط أن يطلب قضائياً برفع دعوى إلى المحتسب طالباً فيه جاره من دفع الضرر[45].

كما منع من نصب معدات قد تسبب ضرراً للجيران نتيجة لدخان تلك المعدات أو فساد دمجها لأنها تؤثر على الهواء وعلى بيئة الناس[46].

التفاعل الاجتماعي مع البيئة

أن مسألة الحفاظ على البيئة السليمة تحمل في طياتها معانٍ كثيرة، وفي مقدمتها ترويض الوسائل المتاحة والمحيطة بالإنسان من أجل سلامته وصحته، وعليه فلا بد للمجتمع أن يكون لديه المعرفة الكافية بثقافة البيئة وطرق تحسينها، وهذا الأمر وجدناه في المجتمع البغدادي في العصور العباسية، وهنالك دلائل تاريخية كثيرة حول الثقافة الاجتماعية الواعية نحو الاهتمام بالبيئة. وكان المجتمع على دراية بأهمية البيئة، والآثار السلبية المترتبة على عدم الاهتمام البيئي، ومنها طرق العدوى للأمراض بين الناس، فلقد عرفوا بأن بعض الأمراض تنتقل في الهواء وتلوثه، فقالوا: (أن الطاعون الذي يعرض هو من تغير الأهوية وما جرى مجراها يعدي كعدوى الجرب والجذام، وعندهم أن الطاعون موجود عمومه لمن يسكن البلد الذي فيه ويطرأ عليه) [47]، أي أنهم على إدراك أن مرض الطاعون من الأوبئة التي تنتقل بالعدوى عن طريق الهواء، وهذا أمر صحيح يتفق عليه مع النظريات العلمية الحديثة.

وكان المجتمع البغدادي يهتم بالجوانب الصحية والحضارية في مناحي حياتية كثيرة ومتعددة، فذهب الأمر بأن المياه الصالحة للشرب تقدم من قبل السقائين، وامتازوا بعناية المظهر، وكذلك يطيبون مشروباتهم بالمسك، ويحملون الماء في كيزان نظيف[48].

ولغرض المحافظة على السقاية من التلوث، حيث أن السقاية هي الموضع المتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها، وقد اتخذت لأسباب خاصة تتعلق بمدينة بغداد ومنها أسباب مناخية وصحية حيث تتصل بظاهرة تلوث مياه الأنهار المخترقة لمدينة بغداد بجانبيها الشرقي والغربي، من جراء تغيرها السكاني منذ منتصف القرن الرابع الهجري[49].

أما ماء دجلة، فأنه كان ينقل إلى البيوت ويوضع بالأوعية لغرض تصفيته، ولذلك فقد ارتأى بعض الفقهاء في العصور العباسية بأن المياه المتوفرة في المساجد والجوامع في الحباب وغيرها هي من حقوق الفقراء[50]، وذلك لتوفير مياه صالحة للشرب غير ملوثة على حدٍ سواء للأغنياء وللفقراء، وهذا جزء من تحقيق العدالة الاجتماعية.

ومن أجل توفير البيئة الملائمة والصحيحة للإنسان، فكان هنالك تركيز كبير على النظافة، باعتبارها الجزء الأهم والحيوي في هذا المحور، ولذلك كان هنالك العدد الكبير من الحمامات، وأصبحت هذه الحمامات مشهورة في بلاد الشام والعراق ومصر، ويتطلب من صاحب الحمام توفير مستلزمات عمل تلك الحمامات ومنها: الحمامي والزبال والوقاء والسقاء[51].

كما يتطلب من صاحب الحمام استخدام الحرارة في الشتاء[52]، وأن يبخر الحمام بالفحم في كل يوم مرتين لاسيما إذا شرع في كنسها وغسلها ومتى بردت الحمام فينبغي أن يبخرها[53].

واستعان الناس بالكساحين للتخلص من المياه القذرة والثقيلة، ويقومون بصب المياه الثقيلة من البيوت إلى الطريق، وفي بعض الأحيان هنالك مسافة بعيدة بين بالوعة البيت والمصب، وبالتالي يتطلب جهداً كبيراً من قبل الكساحين[54].

وللتخلص من الأوساخ والأزبال، فهنالك مهنة الكناسين في المجتمع البغدادي العباسي، ويكون واجبهم نظافة المدينة، ويترأس هؤلاء الكناسين شخص يدعى (عريف الكناسين)، وهنالك تنظيم إداري لعمل هؤلاء، ويحدثنا الجاحظ بأنه كان هنالك عريف في منطقة الكرخ اسمه (نوفل) وهو مسؤول عن كل كناس في هذه المنطقة.

خاتمة البحث

نستنتج من خلال هذا البحث بأن المجتمع العباسي، كان مدركاً لأهمية البيئة والعناية بها، وقد أهتم بالجوانب التي تحصنه من الضرر البيئي وأوله الجانب الصحي في الارتقاء بنظافة الأجسام والبيوت والشوارع، وتنظيم مرافق الحياة العامة.

كما تبين لنا الدور الذي لعبته مؤسسة الخلافة العباسية باعتبارها الجهة التنفيذية والرقابية في برمجة الأسس العامة للبيئة السليمة، والدور الأساس الذي لعبه علماء الأمة في سبيل توعية المجتمع إلى من طرد مكامن الإهمال البيئي على حياتهم وحياة الأجيال اللاحقة.

فضلاً عن ذلك فلقد كان هنالك الدور الرقابي الحكومي والشعبي الذي لعب دوراً حيوياً في سبيل التنفيذ العملي لمقومات البيئة الصحيحة، كما أدى المحتسب دوراً مهماً من خلال القوانين العامة في مراقبة التجاوزات البيئية وسبل محاسبة المخالفين لهذا الموضوع.

أن هذا البحث ليظهر لنا الوعي البيئي الكبير الذي كان معمولاً به أيام العباسيين، وهذا يعكس الجانب الحضاري لرقي ورفعة ذلك المجتمع في العصور الوسطى.

الهوامش

---

(1) سورة البقرة، الآية (60).

(2) أيكولوجيا، أحد العلوم الطبيعية وبالتحديد في التفاعلات بين الكائنات الحية بالمحيط الذي حولها. ينظر: www.wikipedia.org.

(3) ابن منظور، جمال الدين عبد الله بن مكرم (ت 711هـ/ 1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون سنة، ج 1، ص96.

(4) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1333م)، نهاية الإرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، 1933، ج1، ص (95، 97).

(5) م.ن، ج1، ص95.

(6) شلق، علي، العقل العلمي في الإسلام، ط1، بيروت، 1992، ص222، نقلاً من كتاب الفلاحة لابن وحشية.

(7) الشنقطي، محمد الأمين، أضواء البيان، مطبعة المدني، 1965، ج4، ص505.

(8) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463هـ/ 1071م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة، ط1، ص38.

(9) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/ 922م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة، ج7، ص616.

(10) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله (ت 626هـ/ 1229م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون سنة، ج3، ص178.

(11) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت292هـ)، البلدان، ليدن، 1892، ص266.

(12) ابن أبي أصيبعة، موقف الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت 668هـ/1269م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: د. نزار رضا، مكتب الحياة، بيروت، 1965، ج2، ص343.
(13) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج4، ص323.
(14) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1965، ج2، ص218.
(15) التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت 384هـ/994م)، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، 1973، ج5، ص39.
(16) متز، آدم، الحضارة الإسلامية، ج2، ص218.
(17) م.ن، ج2، ص219.
(18) الطبري، م.ن، ج3، ص440.
(19) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/1200م)، المنتظم في أخبار الملوك والأمم، مطبعة حيدر أباد الدكن، ج9، ص3.
(20) متز، آدم، م.ن، ج2، ص276.
(21) ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص28.
(22) ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1966، ج6، ص302.
(23) ابن الجوزي المنتظم، ج10، ص (271-272).
(24) سوسة، د. أحمد، فيضانات بغداد في التاريخ، مطبعة الأديب البغدادية، 1963، ص(260-263).
(25) ابن الجوزي، المنتظم، ج7، ص260.
(26) م.ن، ج9، ص129.
(27) ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت779هـ/1377م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار (رحلة ابن بطوطة)، دار صادر، بيروت، ص224.
(28) ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس (ت 685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص243.
(29) القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي القاضي (ت 646هـ/1248م)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تصحيح محمد الخانجي، مصر، 1908، ص(193-194).
(30) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت 630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1956، ج10، ص302.
(31) ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص(27، 119).
(32) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت845هـ/1141م)، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار المعارف، القاهرة، 1966، ج3، ص47.
(33) حيدر، علي، درر الحكام في شرح مجمل الأحكام، تعريب فهمي الحقبي، مكتبة النهضة، بيروت، ج3، ص276.
(34) م.ن، ج3، ص276.
(35) م.ن، ج3، ص274.
(36) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت589هـ/1193م)، نهاية الرتبة في طلب الحسنة، القاهرة، بدون سنة، ص24.
(37) م.ن، ص32.
(38) م.ن، ص22.
(39) المقدسي البشاري، شمس الدين أبي عبد الله محمد الشامي (ت380هـ/990م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 2، ليدن، 1909، ص129.
(40) حيدر علي، م.ن، ج3، ص277.
(41) الشيزري، م.ن، ص(59-60).
(42) ابن بسام المحتسب، محمد بن أحمد (سنة وفاته ما زالت مجهولة)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام السامرائي، مطبعة المعارف بغداد، 1968، ص69.
(43) م.ن، ص61.
(44) حيدر، علي، م.ن، ج3، ص275.
(45) م.ن، ج3، ص274.
(46) المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت 436هـ/1044م)، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ج2، ص204.
(47) ابن الجوزي، أخبار الظرفاء والمتماجنين، تقديم: محمد بحر العلوم، النجف، 1967، ص31.

[48] الآلوسي، محمود شكري، أخبار بغداد وما جاورهما من البلاد، مخطوطة في المتحف العراقي برقم (6287) ورقة رقم (95-96)
[49] الأزميري، رسالة في شؤون السقايات ووقفها، ص(7-8).
[50] الخطيب البغدادي، م.ن، ج1، ص(117-118).
[51] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/889م)، الحيوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، ج5، ص21.
[52] ابن بسام، م.ن، ص69.
[53] الجاحظ، النجلاء، دار صادر، بيروت، ص161.
[54] الجاحظ، الحيوان، ج3، ص13.

المصادر

❖ القرآن الكريم.

المخطوطات:

- الآلوسي، محمد شكري:

1. أخبار بغداد وما جاورها من البلاد، مخطوطة في المتحف العراقي، رقم (6287) ورقة رقم (95-96).

المصادر الأولية:

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/1232م):

1. الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965.

- ابن بسام المحتسب، محمد بن أحمد (سنة وفاته ما زالت مجهولة):

2. نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1968.

- ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت779هـ/1377م):

3. تحفة النظار في غرائب الأمصار (رحلة ابن بطوطة)، دار صادر، بيروت.

- التوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت384هـ/994م):

4. منشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، 1973.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/889م):

5. النجلاء، دار صادر، بيروت.
6. الحيوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب الربي، بيروت.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/1200م):

7. أخبار الظرفاء والمتماجنين، تقديم: محمد بحر العلوم، النجف، 1967.
8. المنتظم في أخبار الملوك والأمم، مطبعة حيدرآباد الدكن، بدون سنة.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت463هـ/1071م):

9. تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة.

- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت589هـ/1193م):

10. نهاية الرتبة في طلب الحسبة، القاهرة، بدون سنة.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/922م):

11. تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة.

- ابن العبري، أبو الفرج غر يغوريوس (ت685هـ/1286م):

12. تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، بدون سنة.

- القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي القاضي (ت646هـ/1248م):

13. أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تصحيح: محمد الخانجي، مصر.

- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ/1372م):

14. البداية والنهاية، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1966.

- المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت436هـ/1044م):

15. أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، دار الكتب العربي، بيروت، 1967.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت845هـ/1141م):

16. الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار المعارف، القاهرة، 1966.

- ابن منظور، جمال الدين عبد الله بن مكرم (ت711هـ/1311م):

17. لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون سنة.

- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1333م):
18. نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، 1933.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله (ت626هـ/1229م).
19. معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

المراجع الحديثة:
- الأزميري:
1. رسالة في شؤون السقايات ووقفها.
- حيدر، علي:
2. درر الحكام في شرح مجمل الأحكام، تعريب: فهمي الحقبي، مكتبة النهضة، بيروت.
- سوسه، د. أحمد:
3. فيضانات بغداد في التاريخ، مطبعة الأديب البغدادية، 1963.
- شلق، علي:
4. العقل العلمي في الإسلام، ط1، بيروت، 1992.
- الشنقطي، محمد الأمين:
5. أضواء البيان، مطبعة المدني، 1965.

الكتب الأجنبية المعربة:
- متز، آدم:
1. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهايس أبو ريدة، ط4، بيروت، 1965.

المواقع الإلكترونية:
1. www.wikipedia.org.